الباب الأوّل

جراح وطن

سلّة

أحضر سلّة القشّ المصبوغ بالأربعة الألوان، والتي ورثتها أمّه الشّهيدة عن جدّته، ليضع فيها عناقيد العنب الأحمر، ثمّ اقترب بلهفة من الحشد المجتمع بالرّئيس أثناء زيارته للمدينة متعاطفا مع أهلها، ومستنكرا ما تعرّضوا له من قصف، واعدا بإعادة الإعمار.

انتهى الخطاب بالتّصفيق الحار، وودّعت الحشود الرّئيس عند توجّهه نحو سيارته، فأسرع الفتى الخطى وتسلّل بينهم؛ مناديا وعارضا سلّته، لكنّ الرّئيس تظاهر بعدم رؤيته، ولمّا تبعه أزعجه إلحاحه، فقال لأحد حرّاسه:

أبعد هذا المتسوّل عن طريقي!

رمى الفتى بغضب ما دُسّ من مال في يده، وصاح:

أحضرت لك هذا العنب هديّة لتتذكّر، وأنت في قصرك خمرة دمنا التي روت تراب وطننا!

عِشْق

هُجّر قلبه من صدر الحبيب فأصيب بنكبة، وراح يبحث عن خفق عشق جديد...

مكث مدّة يتنقّل من مخيّم حبّ لآخر، فأحسّ بالإرهاق، وأيقن أنّه لم يعد يطيق الإقامة لاجئا في صدور الآخرين، بل البقاء مواطنا في صدر أوّل المحبوبين...

نداء

غلب خدر النّعاس الجسم وأثقل الجفنين، فيما أنامل الأمل تقلّب أوراق دفاتر أحلامه، بعد إحراز النّجاح والتّفوّق الذي سهر وكابد لأجله... فاحتضن نجاحه وغفا، والبسمة ترسم على ثغره انفراج الهموم .

أفاق مذعورا على صوت إحدى قذائف القصف، ليرى أوراقه تتطاير وأشلاء أُمّه، فنظر من فتحة السّقف الآيل للسّقوط نحو الأفق، ونداؤه يجلجل في الفضاء ...

رماد

عاد إلى بيته يرفل بعباءة الفرح لما غنمه من أرباح غير متوقّعة في البورصة. ملأ معدته بأشهى الطّعام وحمل الحلوى ليأكلها على مهل على كرسيّه الفاخر أمام شاشة التّلفاز، وهو يتابع كعادته أخبار السّاعة السّابعة...

قصف مكثّف على الحيّ الغربيّ من مدينة...

ضغط على زرّ آخر

تتزايد أعداد الشّهداء والجرحى تحت أنقاض العمارات...

أغاظه ما يرى ويسمع ،وتمتم متأفّفا:

تبّا لكم ولهذه المشاهد التي تبثّها شاشاتكم. لقد أفسدتم عليّ طعم الحلوى !.

قلّب صوّرا عديدة حتّى استقرّت الشّاشة على عرض صاحبات الوجوه الحسنة، والأحداث المثيرة لمسلسل "رماد الحبّ" فانبسطت أسارير وجهه، واستلقى يرسم في مخيّلته مشاريعه الجديدة.

وفيما هو غارق بين "رماد الحبّ" ووهج المال الكثير، عزفت

موسيقا هاتفه النّقال، فتناوله بتثاقل تبعته قفزة من مكانه صائحا ولاطمًا:

يا لمصيبتي... أنا لم أجدّد عقد التّأمين... لم أجدّد... فهرعت زوجه تتلقّف الهاتف لتتلقّى نبأ تحوّل مخازن الخشب إلى رماد.

نجاة

بعد النّجاة من العاصفة الهوجاء، قرّر اعتلاء باخرة الصّمود.

لاطمتها الأمواج، ولكنّ كفّ الإرادة نجحت في البقاء قابضة على مقود التّحدّي.

توالت النّوّات حتّى تمكّنت من المساس بجوانب الباخرة، وظهر فجأة القرش الأكبر جامعا حوله الصّغار لإغراق الباخرة.

اشتدّ الصّراع وطالت مدّته، وما زال لواء الصّمود يلوح في الهواء، لكنّه على متن قارب صغير يحمل من نجوا من فكّي القرش وأتباعه!

وتلك الأيّام ...

رأى جدّه ينهض من بين الأموات مشيرا له بيده أن يتبعه. مشى خطوات وتوقّف ليقصّ عليه بطولات القادة.. حكى عن شهامة وشرف الأسياد ثمّ عرض صور القصور والقلاع، وما ضجّت به من روائع الزّخرف وضخامة البنيان.. وفي غمرة سعادته بالمعروض أمام ناظريه لسعته بعوضة، تنبّه وتلفّت حوله فإذا به قابع بين مجموعة من الخيام!

تشرّد

عذرا، لا تفزعي أيّتها اليمامة التي تركتِ اتّساع البراري، ورقدت مستأنسة لتتناسلي على شبّاك هذا البيت، فأنا لم أقصد إفزاعك بمروري.

لقد حصرتِ عشّك بين زجاجة وأنبوبة بلاستيكيّة، وكأنّي بك تتقمصين حصاري بين شفافية الأمل، وصلابة الزّمن، ولكنّ الفرق بيننا أنّك تدرجين على عشب الأمل رغم رقودك هنا تتلفّتين مسوّرة باليقظة والحذر... سينعم أفراخك بالحريّة وسيغرّدون في فضاء الفرح، فيما أنا مشرّد أنام على ذراعي الإشفاق، وأصحو على ندى رحمة حروف ما خطّه الموسرون على أوراق الإذلال...

وبينا هو سابح في بحر مقارنته، تعثّرت رجله فوقع في حفرة الزّقاق... لكنّه جمع قواه وخرج نافضا الغبار عن ملابس التّشرّد، ثمّ مشى ناظرًا نحو الأفق البعيد...

عيد سعيد

تعالت أصوات الفتية في زقاق المخيّم بسماعهم صوت التّكبيرات، فخرج سعيد ليشاركهم الفرحة. وقف يتأمّلهم مسندا ظهره إلى لوح خشبيّ شبه مهترئ..

جاء أحدهم وبيده كرة ففرح الفتية، وبدأت الأيادي تتقاذفها، والأصوات تجلجل في الفضاء..

رمى فتى الكرة صوبه.. أسرع لالتقاطها بيديه، لكنّه فطن أنّه نسيها هناك في بلدته تحت ركام بيتهم.

فنّان

جلس الفنّان أمام فرقة جاءت لزيارة بيت الفنّ خاصّته، وبدأ بطرح أفكاره وقيَمه التي يتباهى بها؛ كونه تنازل عن مظاهر البذخ، وما عاشه من رغد العيش؛ ليبدأ حياة جديدة؛ محاربا آفات اجتماعيّة عديدة.

نطقت لوحاته بالبؤس والحزن بتصويرها حياة التّشرّد، وكان الأسودُ ملكَ الألوان، فيما اعتزّ بكونه فنّانا لا يطيق رؤية تعس على وجه البسيطة.

ينصت الجمع لحديثه، وثياب العجب يزيغ بريقها العيون، وأنا جالس على كرسيّ غطّى القماش خشبه، وعيناي تروحان وتجيئان بين قناطر المكان، وأطياف أناس استحضرتهم ذاكرتي تحوم حولي، وتجلدني بسياط العتاب. أحسست بأهداب الخملة تتحوّل إلى مسامير تخترق لحمي، فثارت ثائرتي ووقفت صائحا ومتسائلا:

أين من شرّدوا، واستوليت على بيتهم لتعرض لوحاتك على جدرانه؛ متباهيا

بادّعاءاتك؟! أين هم الآن؟! أين ...؟

إغواء

حدّق في عينيه وهو جالس قبالته، ثمّ رسم على شفتيه ابتسامة خبيثة وهمس بلغة سال شهد رقّتها:

ستصبح من الأثرياء، وستسدّد ديونك التي أثقلت كاهلك.. فما رأيك أيّها السّيّد المحترم؟

ران الصّمت إلى أن كسره ضجيج خبطة يد المحقّق على الطّاولة صارخا:

ما بك أيّها الأحمق؟ المطلوب منك إرشادنا لمخبأ رئيسك المخطّط للعمليّات الإرهابيّة، وبعدها ستودّع حياتك المهلهلة وَ...

وقبل أن ينهي عرض إغراءاته أجابه المتّهم:

أسر في قفص الكرامة خير من كرّ في قصر الخيانة!

قبر

بين شواهد القبور جلست على جمر الوجع شاخصة البصر، وحبيبات الدّموع تتسابق على الوجنتين الملتهبتين.

فجأة كسرت الوجوم، وراحت تزيح التّراب مولولة غاضبة، فخاطبها رجل وصل المقبرة محتضنا ما بقي من طفله؛ لوضعه في حضن الأرض:

لا تنبشي القبر أختاه. دعي من فيه يرقدون بسكينة بعيدا عن الضّجيج والأزيز. فصاحت به:

دعني أحفر قبرا للإنسانيّة التي ماتت!

٢٠١٤/٧/٣٠

وأشرقت الأرض...

هبّت الأنواء والعواصف وزادت من رهبة الظّلام الدّامس فتضاعف فزع النّاس... أمسكوا بالنّوافذ جيّدا لتبقى مغلقة، لكنّ زمجرة الرّيح غلبتهم...

تعالت أصوات الصّراخ والدّعاء مختلطة بصخب الأصوات الأخرى حتّى بحّت الحناجر، ونزفت القلوب أسى...

في الصّباح سكن الضّجيج وهطلت الأمطار لتغسل ما خلّفته الزّوابع، "وأشرقت الأرض بنور ربّها".

28 /7 /2014

تكسير

كسّر صخور اعتراض طريق مثابرته بشاقوف إرادته وصبره؛ كي يوفّر لأولاده الحياة التي حلم بها في طفولته ولم يغرف من ماء هناءتها غَرفة ..

خلع ثوب التّعب حين رأى زينة حياته مثلما أرادها.. وعلّق أسماء أولاده فوانيس على شجرة العائلة التي أوصاه أبوه بمضاعفة أعداد فروعها...

ذات ليل بهيم أغارت الطائرات على الحيّ، فأوقعت بعض العمارات على ساكنيها، عاد من المشفى صبحا، لكنّه لم يأبه بإزاحة الصّخور، بل هرع إلى أنقاض غرفته الصّغيرة مقوّس الظّهر ليعثر على دفتر العائلة، ويكسّر أغصان شجرتها .!

٢٠١٤/٧/١٢

مدّ وجزر

بين مدّ الأزرق وجَزر الأصفر، غمر الزّبد مراكب التّيجان الرّاسية، وصُبغت الشّواطئ بالأحمر، فغادرت لآلئ الكرامة أصداف الذّلّ التي خنقتها؛ لتعتلي زوارق الإبحار في محيط إثبات الذّات والهويّة!

٢٠/ ٧/ ٢٠١٤

تبّا...

تململ هابيل غاضبا إذ ثمل تراب قبره بنبيذ الدّم الذي يشرب، فصرخ:

أما فتئ أتباع قابيل يعتصرون عنب الحقد ويجرونه أنهارا ؟

تبّا لهم!

٢٠١٤/٧/٢٢

آمال

أفطرت آمال على فرحتها بدميتها مكافأة من والدها على صيام رمضان ، فنامت محتضنة إيّاها تخبرها عن شوقها لها، وفرحها بها، وتحدّثها عن صيام الغد..

في السّحور وُجِدت الدّمية بين الأنقاض ملتصقة بأشلاء لحم!

٢٠١٤/٧/١٠

ادّعاء

ادّعوا أنّ لهم حقّا في أرضهم، فراحوا يدبّرون المكائد لاسترداده، فلم تؤتِ ثمارها.

ذات غدر، هجموا بأسلحتهم.. فزع أهل البيت الكبير، وهاج الجيران احتجاجا وهبّوا للنّجدة..

قاوموا بما يملكون، لكنّ أخبارا مرعبة تسلّلت وأثارت القلق والحيرة، فطُلب من أصحاب البيت المغادرة حتّى دحر المهاجمين.

طال الغياب وما من دعوة.. تعبوا وشقوا وأرادوا العودة للدّيار، فحاصرتهم الأسلاك الشّائكة، ونفوا في براري التّيه، ولا يزالون...